القضية والمحذور

التفسير العصري للقرآن الكريم

للدكتور/ محمد سعد قشوان

شغلت قضية التفسير العصري للقرآن الكريم مساحة كبيرة في حقل الدراسات الإسلامية في عصرنا الحديث، وهى قضية لم تحسم - في رأيي - حتى اليوم؛ فلا تزال حرائق الجدل تشتعل حولها، ولايزال المشتغلون في الدراسات الاسلامية مختلفين فيها بين مؤيد ومعارض، وقد امتد أثر هذا الخلاف إلى جمهور القراء والمتلقين من عامة المسلمين فمنهم من يميل إلى ضرورة أن يفسر العلماء القرآن الكريم تفسيرا عصريا ينضح بروح العصر بكل ما فيه من مكتشفات علمية باهرة، ويشف عنها ومنهم من يرى أن القرآن الكريم لاينبغي إخضاعه لطبيعة العصر ومتغيرات الحياة والكون، وأن تفسيره تفسيرا عصريا لايزيد في اعجازه، كما ان الاكتفاء بالموروث من آراء المفسرين واجتهادهم في فهم آياته لاينقصه شيئا، أعني الآيات التي يمكن توجيهها توجيها عصريا في ضوء

العلم الحديث.

ومن علماء عصرنا الحديث الذين اجتهدوا في فهم آيات القرآن ووجهوها توجيها عصريا الامام الشيخ محمد عبده، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب (المنار) والشيخ عبد العزيز جاويش فيما نشره من تفسير في مجلة (الهداية الاسلامية)، وقد اعتمد هؤلاء جميعا على الدراسات الاجتماعية الحديثة، وتأثروا بها فيما كان لهم من تفسير.

وفي الثلاثينات وأوائل الأربعينات ظهر الشيخ طنطاوي جوهري بتفسير للقرآن في ضوء سيطرة العلوم الكونية والانسانية، ولخص آراءه في هذا الاتجاه بكتابه :(الحكمة الاسلامية العليا)، وإلى جنبه قامت دراسات تخصصية مثل كتاب :(الاسلام يترسم خطى الطب الحديث) للدكتور الطبيب حامد الغوابى.[1].

وقد اثيرت هذه القضية بصورة عنيفة في الثلاثينات حين وضع المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار كتابه (قصص الأنبياء) هذا الكتاب الذى أثارت بعض أفكار الشيخ فيه حفيظة بعض علماء الأزهر الشريف، فقد كان جريئا بالأخذ بالاتجاه العصري في فهم بعض الآيات القرآنية، وتوجيهها توجيها يتفق مع السياق القصصي الذي صرف همته إليه في الكتاب.

وقد ألف الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين وقتئذ (عام ١٩٣٣) لجنة من أصحاب الفضيلة العلماء: محمد أحمد بديوي، ومحمد **العزبي** رزق، وعيسى منون لوضع تقرير مفصل عن هذا الكتاب، كما ألف فضيلته لجنة أخرى لبحث التقرير الذي كتبته اللجنة الأولى.

ومن الملاحظ ان الشيخ عبد الوهاب النجار قد ذكر فيما ذكره في هذا الكتاب أن تدمير قوم صالح عليه السلام كان بالصاعقة، المعبر عنها تارة بـ (الرجفة) وتارة بـ (الصيحة) وتارة بـ (الطاغية) وقال ما نصه:[2]

(والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالايجاب والسلب) إلى آخر ما ذكره من بيان الأسباب العادية المنتجة للصواعق، وقال في آخر ما نصه:

(فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق:

وقد جاء في تقرير اللجنة ما نصه:

(من اين جاء له ان الصاعقة التي دمر الله بها قوم صالح هي استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين؟... هل ورد بذلك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو جاء بذلك أثر عن بعض أصحابه ؟ أو استبعد على قدرة الله إيجاد الصاعقة من غير تلك الأسباب المعتادة، فحكم بذلك بمقتضى عقله؟ وجزم بأن هلاك

ثمود كان بـظاهرة من هـذه الظواهر المنتجة للصواعق ؟.

فالذى نراه بـانه لاينبغي الجـزم بكيفية خاصة بدون دليل يثبتها مع ان الأقرب في مثل هذه الأمور ان تكـون بغير أسباب **عادية** والله أعلم بحقيقة الأمر)

وقـد نشر المـرحـوم عبـدالوهـاب النجار رأي اللجنة السابق، ورده عليه كاملا في طبعة الكتاب المتـداولة الآن التي نشـرتهـا مـؤسسـة الحلبي بالقاهرة.

وجاء في رده على استفسار اللجنة حول هذا الموضوع ما نصه: (ان هذا الذي ذكـرتـه هـو التعـريف العلمي للصـواعق عنـد علمـاء الطبيعـة - استغفر الله من الكفر:

ومن يقل بالطبع أو بالعلَّة فذاك كفر عند أهل الملَّة بـل أقول عنـد العلماء بسنن الله الكونية، وهـذا من أوليات هذا العلم في الفرع الخاص بالكهرباء وكان يكفي حضراتهم ان يسألوا أي طالب في القسم الثـانـوي بـالأزهـر ليشرح لهم فيعلموا أني على حق فيما أقول)

أما أن ذلك الذي ذكره لم يرد به خبـر عن رسول الله صـلى الله عليـه وسلم فقد جاء في رده :(لم يرد بما قلته خبـر عن رسول الله صـلى الله عليـه وسلم، ولكنـه علم تعلمتـه ودرستـه دراسة صحيحة... وليس في قدرتي أن أحـول علمي جهلا، ومعـرفتي غباوة وحيـرة، وشأني في هـذا العلم شأن حـضـراتكـم في العلوم مـن النحـو والصرف، والمعاني والبيان والبديـع فان قواعد تلك العلوم وضوابطها لم تنص في الكتاب الكريم ولم يـرد بها حديث صحيح أو غير صحيح، ولكنها علوم استحدثت في الملَّة بعد رسول الله صـلى الله عليه وسلم، وأقـدمها علم النحو استحدث بعضـه في أخريـات خلافة علي كرم الله **وجهه** وقد عـاش الصحابة وتوفوا وهم لم يتحـدثوا في استعارة مكنية أو تبعية ولم يتكلموا في **توشيح أو تدبيج**) .

وذكـر فضيلته رحمـه الله انـه لايستبعد على قدرة الله خلق أي شيء مما لايعلمه، ولكنـه تعالى عَبَّـرَ بأنـه أهلكهم بـالصاعقـة التي كـان يعلم علمها، ولو كان اخترع شيئا لإهلاكهم يعمل عمل الصاعقة لأخبر بأنـه من جنس غير الجنس الذي نعلمه وسماه باسم خاص، وما الله بمسبوق على أن يخلق ما لا نعلم، وأن يسميه بالاسم الخـاص حتى لا يخلط عبـاده بـين مـايعلمون ومـا لايعلمون، ومـا كان لمؤمن على شريعة من العلم أن يـدع العلم الذي يثق به وبصحته إلى مالم يعلم فيكون كمن يترك ساقا متمسكا بها من دوحة عالية دون أن يستمسك بساق أقوى منها فيهوى، ويكون قد ألقى بيده إلى التهلكة)

وبعد كلام آخر سخر فيه من أصحاب الفضيلة العلماء ـ وهي سخرية أرى أنها جاءت في صورة عنيفة ولو أخلى رده منها لكان قد أحسن إلى نفسه قبل أن يحسن إليهم، ذلك لأن كلامهم لم ينشأ عن غفلة منهم كما قد يظن، وإنما جاء في قمة الاحتراس من الوقوع في الخطأ تشير إلى ذلك عبارة (لاينبغي الجزم بكيفية خاصة بدون دليل يثبتها...)، ومن يدري فلعل الزمن يثبت في نشوء ظاهرة الصواعق عكس **ما نعتقده اليوم** في ضوء نظريات العلم الحديث فيكون كلام اللجنة قد صادف الحقيقة، وأصاب المحزَّ ـ بعد ذلك ذكر المرحوم عبد الوهاب النجار أقوال المفسرين،

فقد قالوا: الرعد ملك موكل بالسحاب معه كرباج من حديد يسوقه به من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله فكلما خالف سحاب صاح **فزجره**، فالذي يسمع صوت الملك، وقد اختلفوا في حجم الملك، وقد قال بعضهم انه في حجم الذبابة، وقال الزمخشرى في تفسيره (الرعد الذي يسمع من السحاب كان أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الريح فتصوت عند ذلك) **وأما البرق فقد ذهب** المفسرون لقول الله تعالى إلى أنه ضرب الملك الذي هو الرعد للسحاب بمخراق من حديد، وروى عن مجاهد ان الله عز وجل وكّل بالسحاب ملكا فالرعد قعقعة **صوته والبرق سوطه**، إلى آخر **ما قالوا**.

وبعد أن ساق آراء المفسرين في ذلك قال: (فأنتم ترون أقوال المفسرين في الصاعقة والرعد والبرق ينكرها العلماء بسنن الله الكونية ولا **يقيمون** لها وزنا بعد أن ترقى **العلم** هذا الرقي الذى نراه اليوم، وبعد أن عرفت خواص الكهرباء، واخترعت مانعة الصواعق على المصانع الكبيرة، والعمارات الشامخة اتقاء لضررها)

وقال: (ويظهر أني لو اقتصرت على ما قاله المفسرون مما لايقيم له العلم وزنا اليوم لكنت قد حللت من حضراتهم بمنزلة المحب المكرم)

وقد ختم رده في شيء من السخرية التي يدركها من يطالع الكتاب وذلك حيث قال: (وحيث إن ما جاءوا به من القول لم يصب شاكلة الصواب، ولايعبأ به العلم، ولايعتد به العلماء فيكون اعتراضهم لامعول عليه، **وإني** أقول لحضراتكم: لم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لاتعلمون)؟!

والذى لاشك فيه أن هذا الجدل الذي كان لم يحسم القضية على ما ظهر لنا، بدليل تلك المحاولات التي جاء بها أصحابها من بعد لتفسير القرآن الكريم، أو الآيات الكونية فيه تفسيرا علميا عصريا، ولكن هؤلاء وقعوا في خطأ كبير، وذلك حينما حاولوا

إخضاع القرآن الكريم لتلك العلوم الطبيعية والكونية والانسانية التي ازدهرت الآن وتقدمت بحوثها تقدما ملحوظا فقاسوه عليها، علما بأن الصواب عكس ذلك، فهذه العلوم تقاس على ما ورد في القرآن الكريم من آيات يرى فيها العلماء توجيه نظريات العلم الحديث توجيها علميا ذلك لأن نظريات العلم التجريبي تحتمل الصواب والخطأ، وكثير من هذه النظريات كانت بالأمس القريب من الأمور المسلم بها أحيانا، ولكنها تخلفت في مسيرة الزمن عما وصلت إليه تلك العلوم التجريبية اليوم بعد أن وصل العلماء في بحث مسائل تلك العلوم أو بعضها إلى أشياء حطمت رؤية العلماء فيها من قبل.

وفي برنامج (العلم والإيمان) الذي يقدمه-بالتلفاز-الطبيب الدكتور مصطفى محمود، وفي بعض كتبه مثل كتابه عن القرآن الكريم في محاولة لفهم عصري، وكتابه عن (لغز الموت) كثير من النظرات التي حاول الدكتور أن يربط فيها القرآن الكريم بنظريات العلم التجريبي، والعلوم الكونية، ووصل في هذا الصدد إلى أمور جديرة بالتقدير والاعتبار، ولكنه وقع فيما يبدو في المحظور وذلك حين جعل من نظريات هذه العلوم ناموسا قاس عليه بعض الآيات الكونية والعلمية في القرآن الكريم.

وقد تصدى له في السبعينات بعض المشتغلين بالدراسات الاسلامية ومن هؤلاء الاستاذ عبد المتعال الجبري في كتابه (شطحات مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم).

ولا يكاد يشك عاقل في أن الدكتور مصطفى محمود وغيره ممن حاولوا تفسير آيات كثيرة في القرآن الكريم تفسيرا عصريا قد ساقوا للناس كثيراً من الرؤى الذكية، واللفتات البارعة التي تستحق الاهتمام، كما لايشك عاقل أيضا في أن معظم الذين نعرفهم ممن كانت لهم مثل تلك المحاولات إنما كانوا يهدفون إلى التقريب بين القرآن الكريم ومخترعات العصر ومبتكراته في المجالات الطبيعية والانسانية، يحدوهم الصدق في الأداء، وعيونهم مشدودة إلى نبالة الغاية لكنهم أسرفوا أحيانا فقادهم هذا الاسراف إلى الوقوع في المحذور.

ولقد قال الإمام مالك بن أنس: (ليس كل من أحب أن يجلس للحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، فإن رأوه أهلا لذلك جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخا من أهل العلم أنى موضع لذلك)

وفي هذا تجسيد واضح لفداحة

الجرم حين تزل قدم باحث من هؤلاء الباحثين الجدد نتيجة وفرة التأويلات العصرية التي قد تبعد عن الصواب، وليس لأحد من هؤلاء جميعا أن يدعى مجاراة الامام مالك رضي الله عنه في فقه الكتاب والسنة على ما اظن.

وفي قول لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: (.ولكنني أخاف على هذه الأمة رجلا قرأ القرآن حتى أزلقه، ثم تأوله على غير تأويله)

ويبقى القول بأن القرآن لا يمكن أن يقاس على العلوم الكونية والانسانية، وإنما يستأنس العلماء بآياته فقط فيما يتضح لهم من أمور تبلغ حد الاعجاز فيما يشتغلون به من العلوم الكونية والانسانية.

وليعذرني القارىء اذا قلت إن النفس لايزال فيها الكثير مما يمكن أن يقال في هذا الموضوع، ولعل الزمن يسعفنا بالعودة إليه من جديد إن شاء الله. والله الموفق.

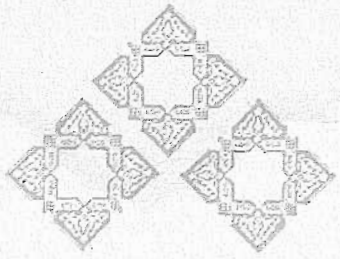

(١) انظر: شطحات مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم لعبد المتعال الجبري، دار الاعتصام، الطبعة الثانية ص ١١.

(٢) راجع الموضوع بتمامه بكتاب: قصص الأنبياء، نشر مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة ص ٥٨ ـ ٦٩.